

هل مات الاستشراق ؟

وفلاسفه وعلماء آثار واختصاصيون بالاديان ، تجمعهم مؤسستهم العلمية . ونحن نعرف الاسماء الكبرى التي تميز اسهام افئة الاولى في اثناء المعرفة : من جان - فرانسوا شامبوليون حتى جوزيف نيدهام ، تمكن مطلب رفيع جدا من أن يبني بصورة بالغة الاختلاف ، لا بد ان نشير الى ذلك ، رقعا كامسلة من المعرفة التي بحوزتنا الآن عن التاريخ الذي عاشته أقدم الامم والحضارات الاصولية لعالمنا .

ومع ذلك ، فان ايا من هذه الاسماء الكبرى التي استشهد بها هنا لم تطرح نفسها ولم تكن تعتبر نفسها بوصفها « مستشرقة » . كان شامبوليون مؤرخا ولفويا وعالم آثار وخليفة الموسوعيين والارسالية العلمية لنابليون بونابرت الذي صحبه قديما لدراسة مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١) : ان علم الاثرات المصرية سوف يتكون تماما في ظل الثورة الفرنسية والنهضة الوطنية لمصر مع محمد علي والطهطاوي (١) . أما جوزيف نيدهام Joseph Needham عالم الطبيعيات والاجنة ومؤرخ العلوم والموسوعي الكبير في عصرنا ، فانه يقيم هذا النصب الهائل «**العالم والحضارة في الصين**» (٢) انطلاقا من الثورة الصينية ، تحيطه صداقة السلطات العلمية والسياسية وتعاونها الكامل في صين المسيرة الطويلة و « الثورة الثقافية » .

ومنذ ذلك ، أين هو هذا « الباقي » كما يقال ، أين هو

(١) راجع رسالتنا الرئيسية لدكتوراه السجولة في الآداب «**الابيدولوجية والنهضة الوطنية : مصر الحديثة**» - باريس ١٩٦٩ التي ستصدر قريبا باللغة العربية بعنوان «**نهضة مصر**» .

(٢) «**شروع ضخمة وضع في عام ١٩٤٢ وظهر أول جزء منه في عام ١٩٥٤ ، وتشر منه حتى الآن سبع أجزاء من أصل حوالى اثني عشر جزءا .**

نكتب صحيفة « الموند » الباريسية : « لقد مات الاستشراق » . وتعلن جماعة من المؤتمرين في المؤتمر التاسع والعشرين الدولي للمستشرقين : « الازمة سياسية : انها قبل كل شيء نتيجة تغير علاقات القوى على المستوى الدولي وتطور نضال الشعوب في آسيا في سبيل تحررها » . ثم ، هناك بالطبع جوقة الاحتجاجات ضد عدم تماسك المنظمة والتهملق وقضايا أخرى .

غير ان الامر الجوهرى ليس هنا . انه على وجه الدقة في القرار النهائي الذي اذ يضع نهاية لحقبة ، يقرر ان يطلق على المؤتمر القادم ل « الاستشراق » اسم « مؤتمر العلوم الانسانية في آسيا وافريقيا الشمالية » . فهل يعني ذلك ان مستشرقى الغرب قد أعلنوا موت « الاستشراق » ؟ وفي حال الايجاب ، لاي سبب فعلوا ذلك ؟ ..

بانظار مكسيكو عام ١٩٧٨ .
ماذا يعني ذلك ؟

منذ مائة وخمسين عاما كان الغرب يدرك الهدف الاساسي من هجمته المتسلطة التي باشرها منذ القرن الخامس عشر : الاكتشافات البحرية الكبرى ، صعود البورجوازية الاوربية ، الفلسفة العقلانية ، الثورة الصناعية - بانتظار انبثاق الاشتراكية . كان العصر عصر المشاريع الاستعمارية الكبرى التي كانت تذهب للتهميد للغزو الامبريالي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . كان هناك عالم يفتح ابوابه بعد ان كان يعتبر مغلقا . عالم محبوس في حصونه ، مرغم على ان يكاد في لحمه ما يمليه عليه الغرب المتسلط ، ملزم في أغلب الاحوال على ان يحد من هويته الوطنية - الثقافية .

كان هذا الهجوم الشامل بحاجة للمعرفة . وكان ثمة فئتان سوف تهتمان بتقديمها : هناك أولا مؤرخون

حقل المعارف هذا الذي سيطلق عليه اسم «الاستشراق» ؟
ومن هم الناس الذين يعرفون أنفسهم بوصفهم
« مستشرقين » ؟ - ما دامت الاشكال الرفيعة من المعرفة
والفكر لا تتعرف نفسها في هذه التسميات التي نقول
عنها « علمية » بمعنى انها صحيحة عالميا ؟

هنا تتدخل الفئة الثانية ، هذا « الخيط من
جامعيين ورجال اعمال وعسكريين وموظفي ارساليات
ومعلمين ومغامرين (. . .) ، اولئك الذين كان هدفهم
اوحيد تعرف الارض المعده للاحتلال . ولعزو وعي
الشعوب لضمان خدمه العوى الاوربية بشكل افضل » .
ازاء « الباقي » ، ازاء « الآخر » ، ازاء هذا العالم ، هذه
العوالم - تلامه ارباع الاسانيه - التي ليست هي بالعالم
العديم « اوريا » ولا بالعالم الجديد « اميركا » ، كان لا بد
من اعادة التجميع : في البداية (القرن التاسع عشر
وبداية القرن العشرين) ، كان الشرق ، الشرق في نظر
المستشرقين بالطبع ، لا الشرق الذي كان يعيش النهضة
والثورة ، شرق محمد علي وعبد الكريم ، شرق ميحي
والتاينغ (٢) و « تركيا الفتاة » والعصيان الهندي
الكبير . ثم في المرحلة الثانية الاكثر معاصرة فقد غدا
« العالم الثالث » .

يكتيب جاك بيرك بحق : « اما الغريب فانه يعمل على
افناعهم ببطلان التنوع . بدونه هناك العدم ! (. . .) .
انه يحشو هذا اندرج بكل ما صنع وما بحث بمعزل عن
اساليبنا . ولكن ما الذي سيفعله بالباقي ، اريد ان اقول
بالكل تقريبا لا وهل يملك الغرب في ان يسمي هذه الاولية
في النتائج ، التي يتكلم من فوقها ، حضارة وان يطبقها
على العالم ؟ (. . .) . كذلك فانه يضغط هذه المجتمعات
ضمن كتلة فيما اسميه العالم الثالث بالتضاد مع المتفجرين ،
حسب تعليبي ، الاشتراكي والبورجوازي » (٤) . وعلى
السفح البريطاني هذه النزوة :

« Européan music is of course music . all other
music is antropology » .

هذا الباقي كله ، هذه الموسيقى الاخرى ، هذه
العوالم الناهضة والثائرة هي الشرق ، وعلى وجه الدقة

(٢) Taiping جماعة سياسية دينية قامت بثورة (١٨٥٠ -
١٨٦٤) ضد تخلف النظام الاقطاعي الملكي القائم آنذاك في
الصين بالاستناد الى جماهير الفلاحين ، ومنها نشا حزب
الكوميتانغ برئاسة الزعيم صن يان تسن .

(٤) « الشرق الثاني » - جاك بيرك - باريس ١٩٧٠ . راجع ايضا
كتاب جمال حمدان العظيم « شخصية مصر : دراسة في عبقرية
الكان » - القاهرة ١٩٦٧ ، ثم « استراتيجية الاستعمار
والتهجير » - القاهرة ١٩٦٨ ، وكذلك راجع ايضا :
Raghavan Iyer (éd) : The Glass Curtain
between Asia and Europe , London , 1965 .

(٥) « الموسيقى الاوربية هي الموسيقى بالطبع ، اما انواع الموسيقى
الاخرى فهي انثربولوجيا » .

شرق الشعوب والامم وثقافات والحضارات المترجمة
بعوه برياح التاريخ الكبرى في هذه الحفبة التاريخية
التي نعيش فيها ، حبة الثورات الوطنية الكبرى
والاشتراكية .

انا ندرك ان هذا « الآخر » الذي عرف ان يحقق
الانبعاث ، وان يناضل لاسترداد هويته اكثر مما يناضل
لمجرد احتلال مسكان بسيط تحت شمس الدبلوماسية
الدولية بادنا ايوم - بواسطة الثورة الثقافية للحركة
الوطنية ، والبتروال العربي ، والصناعة اليابانية -
بالقيام بدوره في المبادرة التاريخية ، اننا ندرك ان
بوسع هذا « الآخر » ان يتمتع بوسائل وعي ومعرفة
نفسه ، تلك التي لا وجود له بدونها تحت الشمس الالهية
لعالم في اوج تحركه .

كان ذلك اكثر مما يستطيعه « الاستشراق » .
وكان لا بد من الفبول بالتحدث عن « علوم انسانية » كما
لو ان مجتمعات الشرق المعاصر - آسيا حول اطار التحرك
الصيني ، افريقيا الشمالية و اسيا الغربية والجنوبية من
حول اطار التحرك الاسلامي والعربي - كان بوسعها ان
تكون مقبولة كموضوعات للدراسة على اقل تقدير . لاننا
في الحقيقة نستمر في التصرف كما لو ان الجهد الضخم
الذي حقق في اثقافه والبحث العلمي والاعداد النظري
في بلاد الشرق معد للاحصاء فقط . فاي دراسة لنقل
حول نظرية الدولة والظاهرة القومية قبلت باسهام المؤرخ
التركي نيازي بيركيس والجغرافي السياسي المصري
جمال حمدان وعالم الاجتماع الهندي رام كريشنا
موكيري لا اننا نستمر في العناد : فالاشخاص المستشهد
باسمائهم (في الهوامش) سيكونون اولئك الذين سيقبلون
دراسة نهضة امهم ونورائهم ومجتمعاتهم وفق المصطلحات
والاطر النظرية للامبريالية الاميركية المهيمنة (« ثقافت » ،
« البناء الوطني » ، « التحديث » ، « تطوير » ، « التعدد » ،
« التنضيد الاجتماعي » ، الخ) . وستظل النظرية ،
« النظرية الكبرى » ، تالكوت بارسونس Talcott Parsons
سليمة ، نقية من اي تلوث يحسدته بها الآخر . فلكل
نصيبه ، وبايجاز ، ذلك هو التدبير الالزامي الاعباطي .

لم يكن هناك سوى صدى ضئيل لكل ذلك ، كما
قيل ، في المؤتمر الدولي التاسع والعشرين للمستشرقين
الذي عقد في باريس بين ١٦ و ٢٢ تموز (يوليو) ١٩٧٣ .
النقد العلني الوحيد الذي صدر عن المؤتمر كان موجها
ضد الاستاذ غافوروف Gafurov والاتحاد السوفياتي
بسبب مشكلة تأشيرة خروج ليهود الاتحاد السوفياتي
بايعاز الاستاذ الصهيوني الرائد برنار لويس . وكان
المقصود منه في الواقع رفض الدعوة السوفياتية لعقد
المؤتمر القادم فيه ، (وهنا ايضا كان يجب اقتراح طشقند
أو سمرقند أو باكو ، لا موسكو ، التي كانت مقر انعقاد
مؤتمر سابق) . بدلا من ذلك ، وبدلا من عقد المؤتمر

القادم في واحد من بلاد الشرق (حيث لم يسبق ان عقد فيها سوى مؤتمرات - دلهي والجزائر - من تسعة وعشرين مؤتمرا) او الغرب حيث تتوفر دراسات ضخمة في هذه المجالات ، فقد فضلت أميركا اللاتينية ، وبالتالي مكسيكو ، اقربية جدا من الولايات المتحدة الاميركية ومن كوبا .

« علوم انسانية » اذن لا « استشراق » . هي ذي صفحة قد طويت . ولكن ، اية « علوم انسانية » ؟ . اقتصاد ، تاريخ ، لغويات ، انثربولوجيا ، فلسفة ، علم اجتماع ، علم البيئة ، علم السياسة ؟ بالتأكيد . ولكن بأي شيء يختلف هذه الدراسات اذن في الميدان العام لعلم الاجتماع والاقتصاد والفلسفة المشترك ييسن كل المجتمعات ؟

الآن اللغات والثقافات هي « اخرى » ؟ « اخرى » بالنسبة لماذا ؟ بالنسبة للغرب ؟ ولكن اوليس الغرب نفسه « آخر » بالنسبة للشرق ؟ وما تسميه أوروبا وأميركا الشمالية « الشرق الاوسط » ، اوليس هو في آسيا « آسيا الجنوبية الغربية » ؟ وبأي شيء حقا تعتبر دراسة التصنيع في مصر والعراق والجزائر ، أو دراسة الشعبية في اندونيسيا أو المغرب ، أو دراسة الدين الوطني في العالم الاسلامي وفي اليابان ، أو دراسة نمط الانتاج الاشتراكي في الصين وفي فيتنام وفي كوريا ، أو دراسة الاندفاع السكانية في علاقاتها مع البيئة والماء والتفذية في بنغلادش وفي تركيا وفي تايلاند - بأي شيء تعتبر دراسة هذه المشكلات « اخرى » بالنسبة مثلا

للاقليمية في ايطاليا ، والتوحيد الوطني في الولايات المتحدة ، والتصنيع والاستقلال في فرنسا ونمط الانتاج الاشتراكي في دول أوروبا الاشتراكية وغيرها ؟ الا انه يجب التزود بلغات ومعارف ثقافية « اخرى » كالصينية والعربية واليابانية والهندية والشواهيية ؟ . ولكن اليس على علماء الشرق الذين يدرسون المجتمعات الغربية او المذاهب العلمية القائمة ان يتقنوا الانكليزية والفرنسية والروسية والالمانية والاطالية والاسبانية هم ايضا ؟ اليس عليهم ان يتكفوا تكاليف باهظة للاطلاع على مختلف المعارف في الغرب وفي أوروبا وفي أميركا الشمالية ؟

هل سيكون علينا من أجل ذلك ان نؤسس « مؤتمرا للعلوم الانسانية في أوروبا وفي أميركا الشمالية » وان نطلق على المختصين الذين سيهتمون بهذه العلوم اسما جديدا هو « المستغربون » ؟

اولم يحن أوان العمل باتجاه ما اطلق عليه الجدلية الاصيله للحضارات ؟ « ربما كانت المشكلة كلها تقتصر على الممارسة الفعالة للتواضع وللحب الاخوي . اننا بحاجة الى قناعة حقيقية تقوم على اساس ان كل عنصرية وكل العقائد المتعجرفة القائمة على التعالي الثقافي تشكل انكارا للعالم بوصفه مجتمعا جامعا » .

ذلك ما يدعوننا اليه استاذنا الجليل جوزيف نيدهام (*) .

(*) فصل من كتاب « الفكر العربي في «هركة النهضة» الذي يصدر هذا الشهر عن « دار الآداب » ، ترجمة بدر الدين عردوكي .

دار الآداب تقدم

العراء

مجموعة قصص بقلم

الدكتور سهيل ادريس

صدر حديثا